



في مطلع القرن العشرين بلغت أهمية العراق الاستراتيجية درجة كبرى نتيجة لاكتشاف النفط في عبادان (في إيران حالياً) الذي أصبح من جملة الأسباب التي تذرعت بها بريطانيا عند احتلال البصرة. وقد دفع تزايد المصالح البريطانية في العراق السياسة البريطانية إلى عد وادي الرافدين مجالا حيويًا للنشاط السياسي والاقتصادي البريطاني، وأوضح اللورد جورج نثانييل كورزون (George Nathaniel Curzon) [الحاكم العام للهند البريطانية للمدة ١٨٩٩-١٩٠٥] أهمية العراق في عام ١٨٩٢ بقوله: "بغداد تقع في ضمن موانئ الخليج ويجب أن تدخل في ضمن السيادة البريطانية التي لا تتنازع" وبعد استقالته من منصبه أكد هذه الأهمية مرة أخرى في عام ١٩١١ حينما قال: "من الخطأ أن نفترض أن مصالحنا السياسية تنحصر في الخليج فإنها ليست كذلك، كما أنها ليست منحصرة بالمنطقة الواقعة ما بين البصرة وبغداد وإنما تمتد شما لا إلى بغداد نفسها". وتأكيداً لهذه الأهمية بدأت الجهات العسكرية البريطانية قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى بوضع الخطط العسكرية لاحتلال جنوب العراق، وأخذ القناصل الإنكليز في بغداد والبصرة والموصل بإعداد المعلومات اللازمة عن الجيش العثماني من حيث أعداده وتجهيزه وقدرته على التحرك فضلاً عن القيام بإحضار الخرائط اللازمة للأعمال العسكرية.

فلما ظهرت بوادر الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ م ارتأت الجهات المختصة في بريطانيا أن تتخذ بعض التدابير الاحتياطية على رأس الخليج العربي، وذلك لأسباب سياسية واقتصادية، أما الأسباب السياسية فتتلخص في:

- ١- رغبة بريطانيا في حماية مؤسسات النفط في المحمرة من تخريب العثمانيين لها في حالة دخولهم الحرب ضد بريطانيا فيحرم الأسطول البريطاني من أهم مورد من موارد الوقود.
- ٢- الخوف من اعتداء الحكومة العثمانية على الرعايا البريطانيين والهنود المقيمين في البصرة والغائها القنصلية البريطانية والامتيازات الأجنبية.
- ٣- أنجاد شيخي الكويت والمحمرة اللذين يؤلفان الجناحين للمؤسسات النفطية من تعديات العثمانيين عليهما وأغرائهما بالوقوف إلى جانبهم.
- ٤- لفت نظر السلطات العثمانية إلى أن بريطانيا مهتمة بأمر العرب ومواقفهم من الحرب فلا تتعب نفسها، بدعوتهم للقتال باسم الدين في صفوف الترك.

أما أسباب احتلال العراق الاقتصادية فهي:

١- تحويل العراق سوق للمنتجات البريطانية.

٢- رغبة بريطانيا في جعل العراق كمورد للمواد الأولية سواء كانت زراعية ام معدنية.

٣- تحويل العراق موقع استثمار لرؤوس الاموال البريطانية.

رغم تلك الاسباب تغيرت وجهة القوات البريطانية، وتقرر ان يكون الانزال في البحرين بدلا من عبّادان أو المحمرة، بانتظار تعليمات جديدة، وعين اللواء السير برسي كوكس (Sir Percy Zachariah Cox) ضابطا سياسيا في الغزو المرتقب.

فلما اندلعت الحرب في ١٨ تموز ١٩١٤م كان العثمانيون يميلون للوقوف على الحياد حتى اخر لحظة ممكنة، والسبب في ذلك هو ان العثمانيين كان يعوزهم المال والسلاح لإدارة ماكينة الحرب، وقد قدر الساسة العثمانيين ان الدخول في الحرب سيؤدي إلى ضرر للدولة العثمانية فنصحوا بعدم المغامرة، ولكن من جانب اخر كان تحالفهم مع المانيا لا بد ان يجرحهم عاجلاً أم آجلاً إلى الدخول في الحرب. وفي الوقت الذي كانت فيه دبلوماسية الحلفاء تركز إلى الضغط تارة والى التهديد تارة اخرى لحمل العثمانيين على الوقوف إلى جانبهم. وفي اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني من هذه السنة اعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية، وتلتها فرنسا وبريطانيا.

العمليات العسكرية لاحتلال العراق

كانت الحملة (٩) من الهند قد وصلت إلى مياه شط العرب في يوم ٣ تشرين الثاني ١٩١٤م، وفي عشية الغزو العسكري البريطاني، اصدر السير برسي كوكس الضابط السياسي المرافق للقوات البريطانية بيانا زعم فيه ان حكومته قد اجبرت على الحرب نظرا للموقف المعادي من قبل العثمانيين، لذا ارسلت بريطانيا قواتها لحماية تجارتها واصدقائها واجلاء الاتراك من المنطقة وان لا عداء لها مع العرب شريطة، الا يحموا الجنود الاتراك، ولا يحملوا السلاح في تجوالهم واكد مهددا على منع ذلك، كي يجرّد السكان من وسائل الدفاع عن انفسهم في ظرف غابت فيه السلطة المحلية الحامية، وبذلك يتسنى لجيشه الغازي ان يتوغل بسهولة.

نزلت القوات البريطانية في الفاو في ساعة متأخرة من يوم ٦ تشرين الثاني ورفع عليها العلم البريطاني بعد مقاومة طفيفة اضطر بعدها الجنود العثمانيون إلى الانسحاب، وبذلك تمكنت بريطانيا من السيطرة على مدخل شط العرب. أما السلطات العثمانية في البصرة فلم يصل اليها خبر احتلال الفاو الا

في اليوم التالي من المدنيين الذين غادروا المنطقة إلى البصرة، فاستعدت القوات العثمانية لتصد التقدم البريطاني باتجاه البصرة إلا أن حركة هذه القوات كانت غير نظامية ولا مدروسة بل مليئة بالأخطاء سواء في شكل التقدم أو في التعبئة والتموين ولم تقدم الاستخبارات العثمانية أية معلومات لقائد القوة عن الموقع البريطاني، ولم تكن لديه خريطة للمنطقة وقصارى القول أن القيادة العثمانية اعتمدت على الارتجالية دون التخطيط والحسابات العسكرية الدقيقة. أما الخطط العسكرية والامدادات البريطانية فكانت مبنية على حسابات دقيقة وتقديرات جيدة منذ بداية تحرك القوات البريطانية من الهند، مكنت البريطانيين من دحر

العثمانيين في معارك السنية وسيحان وكوت الزين، وفتح الطريق أمام هذه القوات لاحتلال مدينة البصرة، ودخلتها القوات البريطانية في يوم ٢٢ تشرين الثاني وفي اليوم التالي استعرضت القوات البريطانية في البصرة، ورفع العلم البريطاني على سطح أحد المباني الرئيسية، وأطلقت البحرية البريطانية مدافعها تحية له، وإذاعت السلطة المحتلة خطاباً دعت فيه أهالي البصرة إلى التعاون معها باعتبارها السلطة الوحيدة القائمة واقعياً ووعدها بالحرية والعدالة.

قامت القوات البريطانية بعد احتلالها لمدينة البصرة، بإقامة المعسكرات لسكنى قواتها وإنزال معداتها العسكرية، والقيام بدوريات للحراسة، والبحث عن الأسلحة في القرى المحيطة بالبصرة، وتقرر مطاردة القوات العثمانية المنسحبة من البصرة باتجاه القرنة والزبير، وقد أعطى الاحتلال القرنة أهمية كبيرة لموقعها العسكري، ولصلاحيته الملاحة إلى الخليج العربي، وغنى المنطقة الزراعية، وإحاطتها بإقليم الأحواز، فتقدمت القوات البريطانية واحتلت المدينة بعد استسلام القوات العثمانية في يوم ٩ كانون الأول ١٩١٤. وبدخول القرنة أصبح البريطانيون يسيطرون على ملتقى نهري دجلة والفرات والطريق الملاحي إلى الخليج العربي.

لقد أوضحت الانتصارات البريطانية السريعة ضعف الأتراك، وعدم استعداد القيادة العثمانية في العراق للوقوف بوجه الغزو البريطاني، لهذا أعاد العثمانيون النظر في تنظيم قواتهم النظامية في العراق، وعملوا على كسب تأييد العراقيين لهم عن طريق إعلان الجهاد المقدس الذي كان له أثره في توجيه الرأي العام المتأثر بالعواطف الدينية إلى حمل السلاح بوجه البريطانيين وبلغ عدد المتطوعين بين ١٠-١٥ ألف مقاتل، وقد توجه هؤلاء لمقاتلة الإنكليز في الشعبية قرب البصرة.

احتشدت القوات العثمانية بقيادة سليمان عسكري بك ومعها قوات المتطوعين وبدأت بمناوشة القوات البريطانية، وبدأ الهجوم الفاصل صباح يوم ١٨ نيسان ١٩١٥ ولكنه كان هجوماً فاقداً لعنصر المباغته نظراً لما سبقته من شواهد دالة عليه، فقام البريطانيون بهجوم مضاد أسفر عن انتصار كاسح للقوات البريطانية، وابتداء قسم كبير من القوات العثمانية، وتعد موقعة الشعبية من المواقع الحاسمة في تاريخ عملية

الاحتلال البريطاني للعراق، فقد فتتت معنويات القيادة العثمانية وخاصة عند انتحار القائد سليمان العسكري كما اوجدت الشكوك بين الناس في امكانية صمود العثمانيين امام الغزو البريطاني واعتبرت معركة الشعب مأساة تاريخية هامة بالنسبة للعثمانيين.

بعد هزيمة العثمانيين في القرنة والشعبية تدهورت قواتهم نحو العمارة والناصرية، بيد ان القوات البريطانية لاحقتها، واتجهت قوة برية ومائية في دجلة إلى العمارة، فاحتلتها في ٢ حزيران ١٩١٥، كما احتلت قوة اخرى، اتجهت عن طريق الفرات، الى الناصرية في ٢٥ تموز، وبعد معارك دامية تم للبريطانيين السيطرة على المثلث الواقع بين البصرة - والعمارة - والناصرية، واصبحت ولاية البصرة كلها تقريبا تحت الاحتلال البريطاني.

شجع احتلال ولاية البصرة والانهيال السريع للمقاومة العثمانية، القادة العسكريين البريطانيين على طلب التقدم نحو بغداد، ووضح السير برسي كوكس، رئيس قادة الحملة السياسيين في برقية بعثها إلى نائب الملك في الهند، بأنه لا يرى كيف يمكن ترك احتلال بغداد، فتقدمت الحملة البريطانية عن طريق دجلة باتجاه بغداد، وكانت بقيادة الجنرال تشارلز تاونزند (Charles Townshend) الذي كان يعتقد في ضوء خبرته السابقة ضعف مقاومة الاتراك وان قواته لن تجد صعوبة في احتلال بغداد، أما العثمانيون فقد عمدوا إلى تجميع قواتهم المندحرة، وشكلوا لجنة تحصين مدينة بغداد للدفاع عنها وحدثت اول معركة بين الطرفين بالقرب من الكوت، في ٢٧ ايلول ١٩١٥ استمرت نحو عشرين ساعة واشترك فيها الاسطولان النهريان البريطاني والتركي، وانتهت بانتصار البريطانيين وانسحاب العثمانيين إلى خطوط دفاعية جديدة اقاموها قرب المدائن بعد ان خسروا ١٧ الف قتيل وجريح و ١٢٨٩ اسيرا، ثم واصل البريطانيون تقدمهم نحو بعد بغداد بعد استعدادات دامت ستة اسابيع. استعد العثمانيون لملاقاة البريطانيين قرب المدائن وحصلوا على امدادات عسكرية من الاناضول، كما وصل إلى بغداد الجنرال الالمانى فون دركولتز (Colmar Freiherr von der Goltz) لتنظيم الدفاعات العثمانية ودارت معركة ضارية بين الجانبين، وخلال المعركة عززت القوات العثمانية بفرقة جديدة الامر الذي مكن العثمانيين من توجيه ضربة قوية اضطرت القوات البريطانية إلى الانسحاب والتراجع نحو الكوت بعد ان تكبدت خسائر فادحة بلغت في يوم ٢٢ تشرين الثاني وحده ٤٥١١ قتيلًا. استغلت القوات العثمانية الانكسار البريطاني في المدائن، وقامت بتعقب القوات البريطانية المتراجعة، وتمكنت من محاصرة البريطانيين في مدينة الكوت في ٧ كانون الاول ١٩١٥، وقد استمر الحصار حوالي خمسة أشهر، ذاق فيها البريطانيون ويلات الحصار، فاكلوا لحوم الخيل وخلعوا ابواب وشبابيك البيوت لاستعمالها في الوقود. وقد حاول البريطانيون عدة مرات انقاذ جيشهم المحاصر دون جدوى، واجروا مفاوضات مع العثمانيين لرفع الحصار مع استعدادهم لوضع مليون أو

مليونى ليرة لقائد القوات العثمانية، لكنه امتنع عن قبول هذه الرشوة، وأصر على التسليم دون قيد أو شرط، فاضطر البريطانيون إلى الاستسلام في يوم ٢٩ نيسان ١٩١٦ بعد ان أتلّفوا سلاحهم ومعداتهم وبلغ عدد القوات التي استسلمت ١٣٥٠٠ جندي عدا الضباط وأرسل هؤلاء أسرى إلى الاناضول والحقيقة ان تسليم الكوت كان نهاية محزنة لمشروع كان الهدف منه احتلال بغداد، وان خسائر البريطانيين منذ البداية حتى تسليم الكوت كانت كبيرة إذ بلغت ٤٠ ألف بين قتيل واسير، واخيرا فان تسليم الكوت كانت ضربة قوية لسمعة البريطانيين.

في الوقت الذي كانت القوات البريطانية محاصرة في الكوت عقدت بريطانيا اتفاقية سرية مع الحلفاء لاقتسام الممتلكات العثمانية، عرفت باسم اتفاقية سايكس-بيكو. فقد تم تعيين البريطاني مارك سايكس والفرنسي جورج بيكو لإجراء المفاوضات نيابة عن الدولتين. ولابد من الإشارة هنا ان بريطانيا كانت في الوقت نفسه قد دخلت في مفاوضات مع الشريف حسين بن علي في الحجاز لتضمن مساعدته في الحرب ضد الدولة العثمانية، وقد اشترط الشريف حسين ان تكون هذه المساعدة متوقفة على اعتراف بريطانيا بأمانى العرب القومية. واذ كانت الحكومة الفرنسية شاعرة باحتمال عقد صفقة عربية- بريطانية، وتوادة الى الحصول على جزء من الامبراطورية العثمانية لنفسها، فقد ألحت على الاعتراف بمطالبها. ولما أقدمت بريطانيا وفرنسا على تحديد حقوقهما على هذه الشاكلة رغبتا في الحصول على مصادقة روسيا عليها، ومن اجل هذا أرسل سايكس وبيكو الى سان بطرسبورغ في اوائل ربيع عام ١٩١٦. وهناك عرضا لائحة اتفاقيتهما وحصلا على مصادقة روسيا عليها، ولكن بعد ان كان الثمن الاعتراف بمطالب روسية اخرى في المنطقة. ومن بنود اتفاقية سايكس-بيكو التي تخص العراق لاحقاً ان تحتل بريطانيا جنوب العراق وان تحتل فرنسا الموصل من جانب اخر كانت الحرب في العراق ما زالت مستمرة ولم يحاول العثمانيون

استثمار الهزيمة البريطانية في الكوت لمحاولة التقدم إلى جنوب العراق واعادة احتلاله وطرد البريطانيين منه، وانما ارسلوا قواتهم إلى ايران لمحاربة القوات الروسية، مما اضعف القوات العثمانية الموجودة في العراق، ومكن البريطانيين من تعزيز قواتهم من جديد وخاصة بعد تولي الجنرال ستانلي مود Frederick Stanley Maude قيادة هذه القوات التي بدأت باستئناف الهجوم ضد العثمانيين منذ اوائل عام ١٩١٧، ودارت معارك هائلة بين الجانبين تضعضع فيها مركز العثمانيين الذين اضطروا إلى الانسحاب من الكوت إلى المدائن يوم ٢٧ شباط وتحصنوا فيها، لكن البريطانيين استمروا في تقدمهم نحو المدائن مما دفع العثمانيين إلى الانسحاب نحو نهر دىالى في ٦ اذار ثم انسحبوا من بغداد فدخلها البريطانيون بقيادة الجنرال مود فجر يوم ١١ اذار ١٩١٧، وقد اصدر الجنرال مود تصريحه الشهير الى اهالي بغداد: اننا لم ندخل بلادكم اعداء فاتحين، انما دخلناها محررين.

كان لاحتلال بغداد من قبل البريطانيين اثاره السياسية والعسكرية والنفسية على الوجود العثماني في مناطق العراق الاخرى، وقد واصل البريطانيون تقدمهم في شمال العراق فاحتلوا سامراء في ٢٢ نيسان، والرمادي في ٢٩ ايلول، وتكريت في ٦ تشرين الثاني ١٩١٧، وبقي الجيش البريطاني عند الفتحة جنوب الشرجاط حتى أواخر تشرين الاول ١٩١٨ وكان على بعد ١٢ ميلا من القوات العثمانية في مدينة الموصل عند عقد الهدنة في ٢٠ تشرين الاول ١٩١٨، وكانت الموصل كما سبق وان ذكرنا تقع بموجب اتفاقية سايكس-بيكو ضمن النفوذ الفرنسي، بينما وضعت بغداد والبصرة ضمن النفوذ البريطاني، غير ان بريطانيا ظلت مصممة على نقل الموصل الى سيادتها، فطلب قائد القوات البريطانية الجنرال مارشال، وكان قد تولى قيادة هذه القوات بعد موت الجنرال مود بمرض الكوليرا، في ١٩ تشرين الثاني ١٩١٧، من علي احسان باشا قائد القوات العثمانية في المدينة مغادرتها، وجرت مفاوضات بين الجانبين وافق فيها العثمانيون على الجلاء عن المدينة، ورفع العلم البريطاني عليها في ٨ تشرين الثاني ١٩١٨، ولما كان من الممكن ان يشكل احتلال الموصل معارضة فرنسا، فقد تم تسوية الامر بأن تأخذ فرنسا حصة من النفط مقابل الموصل. وهكذا انتهت الاعمال العسكرية بعد ان امتدت زهاء أربع سنوات، وخضع العراق للإدارة البريطانية وقد كلف احتلال العراق البريطانيين خسائر فادحة قدرتها المصادر البريطانية، بحوالي مائة ألف قتيل وجريح، هذا فضلا عن الخسائر المادية الهائلة، لهذا يمكن القول ان العراق كان من الجبهات الاساسية التي استنزفت العدد الكبير من الرجال والمال الوفير.